الجبهة الوطنية التقدمية المتحدة
٨

حول مقولة : سقوط البرجوازية الصغيرة

• بقلم : جلال الطالباني •

بعد ان بحث الاستاذ جلال الطالباني ، دور البورجوازية الصغيرة عموما في مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي ، ينتقل في هذه الحلقة الى دراسة دور البورجوازية الصغيرة العراقية بشكل خاص ، من خلال النظرة الى واقعها التاريخي وممارساتها العملية ..
وبعدها ينتقل الى مناقشة، ما يسميه من تطرف يساري في مقولة سقوط البورجوازية الصغيرة التي ارتفعت في اكثر من مكان ، لا سيما بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ ..
اما الحلقة القادمة ، فيخصصها لدراسة قيادة الطبقة العاملة للثورة الديمقراطية
« الهدف »

التجربة العراقية مع البورجوازية الصغيرة

في العراق حاولت البورجوازية الصغيرة عن طريق ممثليها الضباط الاحرار قيادة الثورة الوطنية العراقية . فقد استولى الضباط الاحرار بقيادة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم على مقاليد الحكم في ١٤ تموز ١٩٥٨ وحققوا مهمة اسقاط الملكية واعلان الجمهورية وتحرير العراق من القواعد العسكرية البريطانية ومن حلف بغداد العدواني واعلنوا قانون الاصلاح الزراعي . واطلقت الثورة في سنتها الاولى الحريات الديمقراطية الى حد كبير (مع حرمان القوميين منها) واطلق العنان لانطلاقة جماهيرية واسعة . واطلق العنان للبورجوازية الوطنية لتنتعش وتزدهر وتحقق زيادة ملحوظة في الارباح والمشاريع والانتاج وحاولت البورجوازية ان تلتف حول الثورة وتطوقها وتستحوذ عليها بينما كان « الشيوعيون » يحاولون تحويلها عن طريق التحالف مع الزعيم الاوحد » وبشعار « الحزب الشيوعي بالحكم » وسلميا الى حكم ديمقراطي موجه ، وقد فشلت البورجوازية الوطنية في ترويض البورجوازية الصغيرة (العسكرية) وفي احتوائها شعاراتها وسياستها وعجزت عن اقناعها بتسليمها مقاليد الحكم تحت ستار ديمقراطي دستوري .

وكذلك فشل الشيوعيون في تحويل قاسم الى كاسترو او في الانتقال سلميا الى الديمقراطية البرلمانية . وظلت العناصر البورجوازية الصغيرة (العسكرية) تصر على مزاولة الزعامة والقيادة بذهنية فردية « فوق الطبقات والاحزاب » ومن ثم بعقلية دكتاتورية وبدات بالتراجع عن اطلاق الحريات الديمقراطية وبحجبها عن الاحزاب والمنظمات والصحافة تدريجيا . بعدما ادخلت الشعب في دوامة خلافات دموية رهيبة وبعدما نجحت في خطة فرق تسد واحبطت الجبهة الوطنية وانفرط عقد جبهة الاتحاد الوطني وشرع بعض احزابها بالتقاتل فيما بينها . ومع ذلك فقد حمت البورجوازية الصغيرة (اقتصاديا) مصالح البورجوازية الوطنية ولكنها حرمتها من حقها في الاشتراك في الحكم الوطني وفي ممارسة الحريات الديمقراطية مما اوجد ذلك تناقضا بينهما .

ثم بدات البورجوازية الصغيرة بالارتداد عن الثورة وخاصة عن الاصلاحات الديمقراطية وبمغازلة اليمين والرجعية تحت شعار « عفى الله عما سلف » وبقيت الراسمالية الكومبرادورية دون ان تمس مصالحها وشرعت الاقطاعية بالانتعاش وخاصة في كردستان حيث اتجه الحكم القاسمي اليها بامل استغلالها ضد الحركة القومية الكردية وبدا الاصلاح الزراعي (البورجوازي الطابع) بالتعثر والفشل . وتردت علاقة الحكم الوطني البورجوازي مع جميع الاحزاب السياسية الوطنية والتقدمية .

لقد برهنت تجربة العراق هذه عجز البرجوازية الصغيرة ايضا عن قيادة الثورة الوطنية الديمقراطية نحو تحقيق جميع اهدافها وظهرت اجراءاتها الاصلاحية كاجراءات غير جذرية تتسم بالوسطية والاصلاحية في كثير من المجالات . وظهرت ارتباطاتها الوثيقة بالبورجوازية الوطنية التي تشدها لايقاف تقدمها الى الامام .

ثم عجزت البورجوازية الصغيرة عن تقديم حل مقبول لمسالة السلطة ـ المسالة الاساسية في الثورة ـ اذ حاولت احتكارها لنفسها فحرمت منها العمال والفلاحين والبورجوازية الوطنية وفئات عديدة من البورجوازية الصغيرة نفسها .

ثم عجزت عن تقديم حل علمي للمسالة القومية . وبدلا من ارساء الوحدة الوطنية على اسس المساواة الحقيقية وعلى قواعد الاتحاد الاختياري بافساح المجال ليمارس الشعب الكردي حقه في الحكم الذاتي ضمن الجمهورية العراقية تراجعت حتى عن اقرارها مبدا الشراكة في الوطن بين العرب والاكراد . ثم تحولت الى مواقع العداء واستعمال القوة العسكرية ضد القومية الكردية انتهى بها المطاف الى شن حرب اقتتال الاخوة في كردستان العراق فهدمت بذلك الوحدة الوطنية نهائيا بعدما كانت قد صدعتها بدورها التخريبي المعروف في شق الصف الوطني المتحد وهدم جبهة الاتحاد الوطني التي ضمت الاحزاب الوطنية الخمسة : الحزب الوطني الديمقراطي ، والحزب الديمقراطي الكردستاني ، وحزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي وحزب الاستقلال .

كذلك فشلت البورجوازية الصغيرة في حل مسالة التناقضات الداخلية ، وفي توفير الحريات الديمقراطية للاحزاب والقوى الوطنية وحاولت مسخ الحياة الحزبية والنقابية والمهنية .

اما على الصعيد القومي فقد تبنت القاسمية وهي تمثل الفئة المتوسطة من البورجوازية الصغيرة العسكرية التي تحولت الى بورجوازية وطنية عسكرية فيما بعد سياسة كوسموبوليتية قوامها تجاهل وجود الامتين العربية والكردية ووجود حركتيهما القوميتين ، وحاربت حركة الوحدة العربية دون تقديم شعار صحيح في موضوع الوحدة العربية .

ومن الانصاف الاقرار بان الاحزاب الوطنية التقدمية قد عجزت عن تقديم الشعار الصحيح للمرحلة وفشلت في صيانة اتحادها الوطني وفي حل تناقضاتها الداخلية باساليب ديمقراطية اساليب النقاش والحوار والانتقاد والاقناع .

فتحولت التناقضات الداخلية بينها الى تناقضات عدائية وحادة استعمل لحلها القتل والابادة الجسدية والارهاب والاضطهاد ، بينما كان الواجب يقضي برفع شعار حكم ديمقراطي شعبي بدلا من تخليد حكم البورجوازية الصغيرة الوطني والتطبيل لزعامة قائدها الاوحد وبينما كان الواجب يقضي بحشد القوى وتعبئة الطاقات الشعبية وتوحيد الاحزاب التقدمية وقوى العمال والفلاحين من اجل تحقيق هذا الهدف . فلقد كانت الاحزاب التقدمية تفتقد تحليلا طبقيا صحيحا للاحداث والتطورات وتفتقد رؤيا ثورية للتطورات والمستقبل وتواجه الاحداث بتكتيكات يومية ومواقف بنت الساعة وسياسات قصيرة الامد دون ان تكون لها استراتيجية واضحة تمارس خططها للوصول اليها ، لتحقيقها . مما فوت على العراق فرصة تاريخية نادرة .

وقد مارست البورجوازية الصغيرة العارفية سياسة اكثر يمينية واشد رجعية رغم قيامها بالتاميمات تحت تاثير التطورات العربية في مصر خاصة ورغم صراخها الكاذب عن الوحدة العربية . فلقد اسكرتها ابهة الحكم ومغانمها ونسيت شعار الوحدة العربية .

ان الزمرة العارفية تعطي نموذجا حيا للصراخ والعويل الكاذب من اجل الوحدة من جهة ونسف الخطوات الوحدوية الجدية من جهة اخرى بينما تميزت القاسمية بطابعها العراقي الكوسموبوليتي

ومن المعلوم ان شعار الوحدة العربية الذي طرحته البورجوازية قد جاء مطبوعا بطابع البورجوازية الصغيرة اللاديمقراطية ، بحيث طرح الشعار بشكل مركزي شديد ، بشكل بدا للجماهير الشعبية وكانه نوع من التسلط ، من التحكم . وظهرت حقيقة هامة يجدر بجميع المناضلين العرب ان يفهموها جيدا الا وهي ان الوحدة العربية لا تتحقق الا على ايدي الجماهير العربية بقيادة الطبقة العاملة والا في خضم الثورة العربية الديمقراطية الشعبية .

ان الاضرار الفادحة التي الحقتها البورجوازية الصغيرة العراقية بالوحدة العربية من جراء شعاراتها اللاديمقراطية والخاطئة ومن جراء تصرفاتها التحكمية والدكتاتورية الضارة وبسبب طرحها الفوقاني لشعار الوحدة وتنكرها لضرورة الوحدة الديمقراطية ولتوفير الحريات الديمقراطية للجماهير الشعبية واحزابها التقدمية .

ان هذه الاضرار لافدح بكثير من اخطار الاقليمية والبورجوازية الكبيرة واضرارهما للوحدة العربية .

والمؤسف ان الاحزاب الشيوعية العربية في المشرق لم تدرك اهمية الوحدة العربية كمطلب جماهيري عربي اولا وكاستجابة لحاجات مادية لتطور المجتمع العربي ثانيا واخيرا كتحقيق لفكرة الاشتراكية القائلة بتفضيل الكيانات الكبرى على الكيان الصغير وبتفضيل الاتحاد بين الامم المختلفة على الانفصال فيما بينها من حيث المبدا وبالتالي بضرورة توحيد اجزاء الامة الواحدة كتطبيق لقانون نشوء الامم وتطورها من جهة ولخلق كيان اوسع واقوى في مواجهة الامبريالية واصلح لتسريع التطور الاجتماعي ولنمو القوى المنتجة والطبقة العاملة من جهة اخرى .

فالامة العربية امة واحدة جزاتها الامبريالية والاقطاعية لفرض طغيانهما وتسلطهما على الجماهير الشعبية العربية ولاضعاف مقاومة هذه الجماهير وتفتيت قواها وطاقاتها . والنضال العربي ضد الامبريالية والصهيونية والاقطاعية وضد التجزئة هو نضال عادل ومشروع . لذلك يجب على القوى الطليعية العربية ان تخوض غمار هذا النضال وان تسعى لقيادته . نعم على القوى الطليعية العربية ان تحتضن التيار التحرري الوحدوي القومي وان توجه هذا التيار ضد الامبريالية والصهيونية والاقطاعية والتجزئة ومن اجل التحرر الناجز والديمقراطية الشعبية والوحدة العربية وبذلك تحرم القوى البورجوازية والرجعية من امكانية التلاعب بعواطف الجماهير الشعبية ومن استغلال التيار القومي العربي (الموجود تاريخيا وموضوعيا) لصالح اليمين او المشاريع الاستعمارية المشبوهة ذات الصفة الاتحادية او الوحدوية العربية وبالعكس فعلى القوى الطليعية العربية تقع قيادة التيار القومي التحرري الوحدوي العربي في درب النضال الثوري ضد الامبريالية والصهيونية والاقطاعية والتجزئة ومن اجل التحرر التام من الامبريالية والاستغلال السياسية والاقتصادية والفكرية ومن اجل القضاء التام على الاقطاعية والتجزئة وبالتالي من اجل الديمقراطية والوحدة القومية للامة العربية .

ان احتضان وقيادة التيار القومي التحرري من قبل الاحزاب الطليعية لا يؤدي الى عزل البورجوازية عن قيادة الحركة التحررية القومية … بل ويؤدي ايضا الى تطوير المحتوى التقدمي للتيار القومي، وانعاش مضمونه الديمقراطي والدمج الصحيح بين المسالة القومية والمسالة الفلاحية وبالتالي جعل الحركة التحررية القومية حركة ثورية ذات مضمون فلاحي، وديمقراطي في شعاراته بين الحقوق القومية والمطالب الاجتماعية التقدمية . وبذلك تستطيع القوى الطليعية العربية ان تكسب قيادة جماهير الفلاحين وكذلك قيادة التيار القومي التحرري وبالتالي، ان تكسب قيادة النضال الوطني الديمقراطي، فتصبح طليعة حقيقية للشعب في قيادة نضاله ضد الامبريالية والاقطاعية والرجعية ومن اجل التحرر والديمقراطية الشعبية والوحدة العربية .

ولا ريب ان تحقيق وحدة عربية تقدمية من خلال نضال الجماهير الشعبية العربية سيحقق للامة العربية هدفها القومي الاسمى كما سيخلق كيانا قويا تقدميا يرجح كفة الشعوب الثورية ويكسبها دولة تقدمية كبرى ذات امكانات مادية وبشرية وطاقات هائلة. وبذلك يمكن تحطيم حلقات قوية من الجبهة الامبريالية والرجعية والصهيونية والاخلال بالتوازن في افريقيا والشرق الاوسط لصالح الشعوب الثورية . وبتحقيق الوحدة العربية يمكن للقوى الثورية العربية ان توحد طاقاتها العظيمة وتتلاحم بها مع قوى الشعوب الثورية في النضال لاسقاط الامبريالية على النطاق الاقليمي والعالمي كما تسهل الوحدة العربية التقدمية على الامة العربية انجاز مهمات التحرر الاقتصادي كتاميم النفط العربي وبناء اقتصاد وطني قوي مستقل وتصنيع البلدان العربية ومن ثم غلق الاسواق العربية بوجه الراسمالية الدولية . وحرمان هذه الراسمالية الدولية من النفط العربي والاسواق العربية والمواد الخام العربية سيؤدي الى تشديد الازمة الخانقة للنظام الراسمالي العالمي وبالتالي الى المساهمة في التعجيل بانهيار الامبريالية العالمية خاصة والامة العربية تعادي الصهيونية التي تشكل حلقة هامة من الامبريالية العالمية .

ولما كانت للوحدة العربية مثل هذه الاهمية فقد كان طبيعيا ان تعاديها الامبريالية وتعرقل تحقيقها وتصون الحدود المصطنعة وتحمي التجزئة الاقطاعية والاقليمية القائمة . كما كان من الواجب ان تناضل الاحزاب الشيوعية في مقدمة الجماهير الشعبية العربية لتحقيق اهداف حركة التحرر القومي العربي وان تحتضن التيار القومي التقدمي وتقود هذا التيار لتصبح الطليعة الحقيقية للقومية العربية وللجماهير الشعبية العربية . فمهمة القوى الطليعية الثورية العربية هي اذن قيادة التيار التحرري القومي باتجاه تقدمي معاد للامبريالية والاقطاعية والصهيونية ، والنضال من اجل التحرر الشامل والديمقراطية الشعبية والوحدة العربية . وهي مهمة نجد ان البورجوازية فاشلة في ادائها كما نجد البرجوازية الصغيرة فاشلة عمليا في اداء دور القيادة في الثورة الوطنية بنجاح .

فما عدا اسقاط الانظمة الملكية الموالية للامبريالية (سياسيا) والى حد ما اقتصاديا واجتماعيا وتحقيق بعض الاصلاحات الديمقراطية في المجالات الزراعة والصناعية والثقافة لانها تفشل في خلق الوحدة الوطنية (وتشكيل الجبهة الوطنية المتحدة) وفي توفير الحريات والحقوق الديمقراطية للجماهير الشعبية كي تطلق وتحشد طاقاتها وتعبيء امكانياتها في المعارك الطبقية وتراها تفشل في تحقيق مهام مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي الاساسية في القضاء الناجز على الامبريالية وركائزها وقلع جذورها الاقتصادية والاجتماعية في البلاد وفي اجتثاث شافة الطاقات الاقطاعية والقضاء على الاستغلال الطبقي والاضطهاد القومي وكذلك في بناء السلطة الشعبية المطلوبة في هذه المرحلة التاريخية ، لذلك سقطت البورجوازية الصغيرة في الامتحان وبان فشلها .

التسرع اليساري البورجوازي الصغير

لقد فشلت البورجوازية العربية الصغيرة في العراق كما فشلت في جميع الاقطار في قيادة الثورة بنجاح حتى نهايتها الظافرة وخاصة في بناء حكم ديمقراطي حقيقي ناهيك عن بناء الديمقراطية الشعبية . لقد صدمت الاحداث مقولة لينين بان الحرب هي امتحان ومحك لجميع الطبقات والاحزاب السياسية . وقد جاءت حرب حزيران عام ١٩٦٧ لتكشف الحقائق المرة عن البورجوازية الصغيرة وفشلها في تولي قيادة الثورة الوطنية الديمقراطية حتى النهاية وظهرت عيوبها عارية للعيان . وكرد فعل للاحداث فقد اتجهت فئات عديدة منظمة ومبعثرة من البرجوازية الصغيرة بسرعة الصواريخ الى اليسار واقصى اليسار فاصبحت فئات منها تدوار « التسرع اليساري » وقد تعالت بينها الاصوات تؤذن بسقوط البورجوازية الصغيرة تاريخيا كان ذلك اكتشاف فريد جديد .

والواقع ان البورجوازية الصغيرة ساقطة تاريخيا منذ ظهور البروليتاريا كقوة جديدة اوكل اليها التاريخ بمهمة قيادة الثورة وليس اكتشاف اصحابنا اليساريين الجدد بجديد بل انه قديم ومر عليه اكثر من قرن من الزمان . ولكن اخواننا المتشوقين واخيرا بعدما لمسوه بايديهم وشاهدوا « صرح الاماني » الملقى على الحكم التقدمي البورجوازية الصغيرة يتداعى واوشك ان ينهار على رؤوسهم ايضا .

الا ان هذا الاكتشاف الموفق لا يستوجب الفزع والهلع ولا الهروب من الواقع باتجاه اقصى اليسار ولا يبرر تبني الشعارات « ما فوق اليسارية » واعلان العداء المكشوف والحرب الفورية على هذه الانظمة الوطنية التقدمية ، « كرد فعل » لسقوط الخيال هذا مع العلم ان الطبيعة الطبقية للبورجوازية الصغيرة (كمالك صغير) تضفي عليها هذه الصفات الثورويه التي تشبه الفوضوية احيانا . يقول لينين :

« لقد تقرر عند الماركسيين نظريا بصورة تامة واختبار جميع الثورات والحركات الثورية في اوروبا قد اكد هذا الامر بصورة تامة ان المالك الصغير (هذا النموذج الاجتماعي الذي يمثل في كثير من البلدان الاوروبية جمهورا غفيرا للغاية) اذ يعاني في ظل الراسمالية ظلما دائما وغالبا ما تسوء حياته بشدة وبسرعة خارقة وبعيبه الدمار ، يصاب من جراء ذلك بسهولة ، بالافراط في الثورية الا انه غير قادر على ان يبدي الثبات والصمود والتقيد بالطاعة » . ـ ص٢٠ من مختارات لينين ـ الجزء الرابع ـ الطبعة العربية ـ موسكو . يقينا ان الثوريين الحقيقيين والماركسيين اللينينيين يرحبون بتحول المناضلين التقدميين الى اليسار وبرغبتهم في تبني الماركسية اللينينية فالنظرية الاشتراكية العلمية ليست احتكارا على فئة ولم تسجل في دائرة الطابو ملكا صرفا على احد . انها نظرية ثورية من اجل التغيير الثوري ، انها نظرية ثورية الجماهير الشعبية ترشدهم في النضال الثوري وترشد جميع الذين يحبون وطنهم ويريدون الخير لشعوبهم ويرغبون بصدق واخلاص ان يسلكوا طريق التقدم الاجتماعي . انها نظرية ثورية لجميع العمال والفلاحين والكادحين والمثقفين الثوريين الذين يريدون تحرير الانسان من الاستغلال والاضطهاد القومي ويناضلون من اجل الاشتراكية . انها نظرية الانسانية التقدمية باسرها .

ولكن الادعاء بالنظرية وتبني الاشتراكية العلمية وترديد جمل من ماركس ولينين وغيرهما من فلاسفة الماركسية اللينينية شيء ، وفهم واستيعاب نظريتهما وفلسفتهما ودمج حقيقتها العامة بالظروف الواقعية والخصائص المحددة للثورة شيء آخر .

ان فهم النظرية الاشتراكية العلمية واستيعابها هو الخطوة الاولى اما الاهم منها فهو تطبيقها العملي ودمجها بالشروط الملموسة والخصائص الحسية للنضال الثوري باعتبار النظرية هادية للعمل ومرشدة للنضال ، يقول لينين « ان الممارسة العملية اعلى من المعرفة (النظرية) لانها لا تمتاز بصفة الشمول فحسب بل تمتاز كذلك بصفة الواقع المباشر » .

ويقول ماوتسي تونغ : « ان النظرية المادية الديالكتيكية عن المعرفة تضع الممارسة العملية في المقام الاول اذ تعتبر ان معرفة الانسان لا يمكن ان تنفصل اطلاقا عن الممارسة العملية وتنبذ كل النظريات الخاطئة التي تنكر اهمية الممارسة العملية وتفصل المعرفة عن الممارسة العملية » ـ ص٤٢٤ من المؤلفات المختارة ـ الجزء الاول ـ في الممارسة العملية .

لذلك يجب ادراك اهمية الحزب الطليعي المسلح بالافكار الاشتراكية العلمية والذي ينجز هذه المهمة ويعبر عنها بمناهجه وسياسته الثورية الصائبة وبوضعه الصحيح لستراتيجية صائبة وتكتيكات مدروسة تخدم هذه الستراتيجية .

فالحزب الطليعي هو الذي ينظم الممارسة النضالية ويقود نضال العمال والفلاحين والكادحين والمثقفين الثوريين المندمجين بهم وهو الذي يتولى خلق الكوادر والعناصر المناضلة المشبعة بالافكار الثورية والنظرية الاشتراكية العلمية وهو الذي يستطيع صهر العناصر اليسارية الجديدة التي ترغب في تبني الماركسية اللينينية بصدق واخلاص ثم ان تحول هذا الفريق من العناصر الثورية الى اليسار وتركهم لنهجهم البورجوازي الصغير وشجبهم الذهنية البورجوازية الصغيرة وتحولهم نحو الاشتراكية العلمية هو امر حسن ولكن المهم هو تحويلهم عمليا الى اشتراكيين علميين حقيقيين وهو مهمة شاقة تتطلب بجانب الاستعداد ، الاستيعاب السليم للنظرية الاشتراكية العلمية والممارسة العملية المستمرة خلال فترة زمنية كافية . يقول ماوتسي تونغ : « ان للمادية الديالكتيكية ـ الفلسفة الماركسية مزيتين بارزتين ! اولاهما صفتها الطبقية فهي تعلن صراحة ان المادية الديالكتيكية هي في خدمة البروليتاريا والثانية صفتها العملية فهي تؤكد على تبعية النظرية للممارسة العملية حيث ان النظرية تقوم على اساس الممارسة العملية ثم تعود لخدمة الممارسة العملية » . وان هذه المهمة تجابه بصعوبات عديدة لان الجو النضالي الوطني والاممي مليء بالمقولات والدعايات التحريفية و « اليسارية الجديدة » و « التروتسكية » التي تبنى تحت شعار مكافحة الستالينية (هذا الشعار التحريفي المعادي للماركسية اللينينية) تبني جملة من الافكار المضللة المعادية للاشتراكية العلمية .

ان الاسواق تعج بكتب جميلة المظهر تحمل عبارات مغرية عن اليسار الجديد والدوبرويه والمكتبات تزخر بالكتب التحريفية الغريبة عن اذهان الشباب المنسلخ من البورجوازية الصغيرة ! لذلك فان تحول الشباب التقدمي الى الاشتراكية العلمية ستعترضه عراقيل كثيرة وصعوبات جمة .

ولا غرابة ان تدفعهم قاعدة « رد الفعل » من قبل اسلاحهم من البورجوازية الصغيرة الى التسرع اليساري الذي يعبر عن نفسه بالشطب على البورجوازية الوطنية باسرها (وبما فيها من مراتب تقدمية) وبالمناداة بسقوط البورجوازية الصغيرة نهائيا وبترديد مقولات تروتسكية ودوبرويه عن الثورة والبؤرة الثورية وبتجاهل ضرورة الثورة الديمقراطية الشعبية ، حتى كان رغبتهم الذاتية قادرة على تبديل احكام التطور الاجتماعي وفرضيات التاريخ . هذا بينما تبقى الحقائق الموضوعة في مكانها الاجتماعي التاريخي تتغير وتتفاعل وتتطور لا وفق رغبات الصفوة المثقفة او امنياتهم الطيبة بل وفق قوانين التطور الاجتماعي والحاجات المادية للمجتمع البشري وتصادم التناقضات .

فمثلا ان اعلان سقوط البورجوازية الصغيرة فعلا ، من قبل هؤلاء المناضلين لا يعني سقوط البورجوازية الصغيرة فعلا . لان البورجوازية الصغيرة ما زالت قوة ثورية في النضال وبالامكان ان تبقى قوة ثورية الى البناء الديمقراطي الشعبي .

فالبورجوازية الصغيرة هي احدى القوى التقدمية المدعوة الى المشاركة في النضال الموحد لبناء الديمقراطية الشعبية . ولكنها لا تستطيع ان تكون قائدة هذا النضال .

هذا عن البورجوازية الصغيرة المحكومة التي تضم الفلاحين المتوسطين والطلبة ومعلمي المدارس الابتدائية والثانوية وصغار المحامين والاطباء والمهندسين واصحاب الصناعات اليدوية وصغار موظفي الحكومة والكتبة وصغار التجار والكسبة كالبقالين والعطارين واصحاب الدكاكين . وهذه البورجوازية الصغيرة تضم فئات واسعة وكثيرة من الشعب وبينها فئات مثقفة ومتعلمة ذات شأن هام في الحركة الوطنية والثورية وهي بمجموعها تنقسم الى مراتب ثلاث .

والبورجوازية الصغيرة باسرها تعتبر مع العمال والفلاحين القوة الثورية الرئيسية في مرحلة التحرر الوطني . ولكنها عاجزة عن القيام بدور القيادة او الطليعة .

اما البورجوازية الصغيرة الحاكمة فتختلف عن البورجوازية الصغيرة قبل ان تتولى الحكم بالخصائص التالية :

١ ـ ان الفئة الحاكمة من البورجوازية الصغيرة غالبا تمثل المرتبة العليا من البورجوازية الصغيرة وهي المرتبة التي تكفي نفسها بنفسها اقتصاديا مع زيادة سنوية وهذه الفئة الحاكمة لا تكفي نفسها سنويا فحسب بل تسرع بالتحول الى بورجوازية متوسطة بفضل مواقعها في السلطة وبفضل الرواتب والامتيازات والمناصب والرفاهية والترفيعات السريعة التي تنالها وبذلك تشكل الطبقة الجديدة وهي طبقة بورجوازية متوسطة جديدة في البداية ولكنها تشرع بالتحول الى بورجوازية احتكارية بحكم احتكارها لسلطة الدولة التي يكون جوهر بنائها التحتي راسمالية الدولة. فحينما تصبح راسمالية الدولة البناء التحتي تشرع البناء الفوقي (السلطة السياسية والقانونية والتنفيذية ـ اي الحكومة ـ) بالتحول التدريجي الى حكومة راسمالية الدولة طبقا لقانون توافق البناء الفوقي مع البناء التحتي وكونه انعكاسا وصورة سياسية فوقية للبناء الاقتصادي التحتي . وهكذا تتحول الفئة الحاكمة من البورجوازية الصغيرة الى البورجوازية المتوسطة تدريجيا ثم الى بورجوازية احتكارية من طراز جديد بحكم سيطرتها المطلقة على المشاريع الصناعية والمصرفية والمالية والزراعية وعلى الاقتصاد الوطني والتجارة الخارجية وبحكم تحول الدولة الى حكم راسمالية الدولة . وهذا اختلاف هام بين البورجوازية الحاكمة والمحكومة.

٢ ـ ان البورجوازية الصغيرة الحاكمة لا تمثل البورجوازية الصغيرة كلها ولا جميع مراتبها بل مرتبتها العليا غالبا . بينما تخوض البورجوازية الصغيرة بمراتبها العديدة (بدرجات متفاوتة طبعا) معارك التحرر الوطني ، تشرع الفئة العليا الحاكمة من البورجوازية الصغيرة بالانسلاخ عن طبيعتها البورجوازية الثورية وبالاختلاف معها والتردد في خوض النضال الثوري .

٣ ـ بينما تمتاز البورجوازية الصغيرة المحكومة بخاصية وبقدرة التعاون مع العمال والفلاحين الفقراء وسائر الكادحين في النضال من اجل التحرر والديمقراطية الشعبية ترتد البورجوازية الصغيرة الحاكمة عن الديمقراطية الشعبية وتسعى لبناء حكمها الوطني التقدمي كبديل عنها .

٤ ـ بينما تناضل البورجوازية المحكومة مع العمال والفلاحين الفقراء وسائر الكادحين من اجل الحقوق والحريات الديمقراطية تشرع الفئة الحاكمة منها بحجبها من العمال والفلاحين الفقراء وممثليهم في صفوف المثقفين حالما تستولي على السلطة حيث تشرع بفرض دكتاتوريتها وتحرم بذلك الجماهير الشعبية الكادحة من الديمقراطية ومن ممارسة الحريات الديمقراطية .

٥ ـ تقبل البورجوازية الصغيرة المحكومة شعار الجبهة الوطنية المتحدة ولكن البورجوازية الصغيرة الحاكمة ترفضها وتنبذ شعار الجبهة المتحدة لتطرح بدلا عنها شعار الحزب الواحد او التجمع القوى الواحد او الاتحاد الاشتراكي او التنظيم الواحد . ومع ذلك فان سقوط البورجوازية الصغيرة من علياء القيادة تاريخيا لا يعني اخراجها من على منصة القيادة التي تقف عليها الان او طردها من ميدان التاثير على الاحداث والاوضاع فورا .

في نقاشه مع الشيوعيين « اليساريين » الالمان ناقشهم لينين في قولهم بسقوط البرلمانية تاريخيا مما ترتب عليه (بزعمهم) مقاطعة البرلمان بصورة مطلقة ودائمة فيعرض لينين ويوضح الفرق بين سقوط البرلمانية تاريخيا وهو قول صحيح على المدى الستراتيجي وبين بقائها الواقعي في المدى التكتيكي . وفي عصر انهيار الامبريالية يصف لينين الاستعمار « بعملاق ذي قدمين من طين » هذا الوصف الذي صاغه ماوتسي تونغ بعبارته المعروفة بان « الاستعمار وجميع الرجعيين نمر من الورق » . فعند الشرح يوضح حقيقة ان كون الاستعمار عملاقا له قدمان من طين او نمرا من الورق قول صحيح على المدى الستراتيجي من حيث النظر الى المستقبل الذي هو للشعوب وجماهيره الكادحة حتما ولكن الاستعمار نمر حقيقي وقدماه من حديد وصلب اذا نظرنا اليه في اصطدامنا المباشر به ، على المدى التكتيكي ، على مستوى الممارسة النضالية صدده .

في العدد القادم : الطبقة العاملة قائدة للثورة الديمقراطية